انهيار البوابة الشرقية الحقائق التاريخية والموجبات الجيوستراتيجية

المقدمة :

الإنسان هو ظل الله على التاريخ ، والتاريخ هو ظل الإنسان على الجغرافية . تلك هي فلسفة العلاقة بين التاريخ الإنساني والمكان .

وعلى مر الزمن ، كان توازن القوى بين الأمم ينتج أساساً كحصيلة لعوامل الجغرافية السياسية وكذلك إرادة وحيوية وقابلية الشعوب المتنافسة على التنظيم .

وهنا ، فإن واحداً من أهم دروس التاريخ الحديث والقديم لمنطقة الشرق الأوسط ، وفي القلب منها المنطقة العربية ، هي تلك العلاقة العضوية بين أوضاع الأمن القومي العربي والوضع الاستراتيجي للبوابة الشرقية للأمة العربية .

إن أية نظرية قومية شاملة للأمن ، لأية دولة أو أية أمة ، لا يمكن أن تقوم أساساً دون تحديد عدة عناصر هي خلاصة البناء الفكري لعقائدها العسكرية والإستراتيجية ولتجاربها في الحروب والأزمات الطويلة التي تعرضت لها عبر تاريخها .

ويأتي في أول تلك العناصر القدرة على تحديد مصادر الخطر الاستراتيجي على الأمن القومي تاريخياً من خلال تحديد وتعريف معنى (الخصم التاريخي) أو (العدو الطبيعي) ، وعلى الرغم من أن لكلا الاصطلاحين (الخصم التاريخي) و (العدو الطبيعي) أكثر من تعريف في المصادر والمراجع العلمية ، إلا أنهما لا يختلفان كثيراً من حيث المضمون .

فالخصم التاريخي من حيث الدلالة يشير إلى معنى الاختلاف في تفسير الحدث أو الموقف التاريخي بالمعنى الإيديولوجي ، أي وجود أمتين تختلفان عقائدياً في قراءة تاريخهما المشترك .

أما مصطلح العدو الطبيعي فهو يلازم إلى حد بعيد مفهوم النظرة التاريخية المتبادلة بين أمتين والقائمة على فكرة التناقض الحتمي الطويل في المصالح .

ومع التسليم بان أحد هذين التوصيفين لمعنى العدو يمكن تطبيقه نسبياً على جميع الأمم التي جاورت العرب في التاريخ ، كالمغول والأتراك والإغريق ، على وفق نظرية تعاقب وتصادم الحضارات . إلا أن التوصيفين معاً ينطبقان فقط على أمتين دون تلك الأمم ، كان المشهد التاريخي العربي

معهما تسلسلاً لا ينقطع لصور انتهاز الفرص التاريخية والانتقام الحضاري ، وهما أمة الفرس وأمة اليهود (إذا جاز لنا اعتبار اليهود أمة) .

ومنذ أزل الشرق الأوسط ، فإن حركة الصراع بين أممه الثلاث الأساسية – العرب ضد كل من الفرس واليهود – كانت تجري وبصفة خاصة فوق سهل وادي الرافدين أكثر من أي مكان آخر . فهذه الرقعة الجغرافية كانت على الدوام السهل المفتوح أمام زحف الغزاة القادمين من الشرق باتجاه الحضارة العربية غرباً ، كما كانت بالمقابل خط الوثوب لانطلاق جحافل الفتح الإسلامي باتجاه الأمم الآسيوية في بلاد الشرق .

وإذ يسجل التاريخ غزاة كثيرين ، غير الفرس وحلفائهم اليهود ، قد عبروا أرض العراق في مختلف حقبه التاريخية ، إلا أن بين سطور التاريخ أكثر من إيماءة تدل على أن الفرس واليهود قد ظهروا بظلهم في جميع تلك الحملات .

إن تعاقب الدورات التاريخية بهذا المنحى ألاصطراعي العنيف ، وعلى نفس الرقعة الجغرافية ، يعزز الاعتقاد في ضرورة اعتبار العراق ، لذاته ، الجائزة الإستراتيجية التي حلمت بالظفر به جميع القوى في العالم القديم ، فهو مهد المسيطرين على العالم .

وبهذا المعنى الجيوبوليتيكي ، فإن العراق أيضاً – بوصفه معبر الغزوات الكبرى عبر التاريخ – هو نقطة ارتكاز الحضارة العربية جمعاء . فبإسقاط معطيات الجغرافية على حقائق التاريخ فإن الجزء الأهم من حركة التاريخ للجنس البشري قد جرت على أرض العراق .

على أساس ما تقدم فإن هذه الدراسة تفترض أن العراق هو المحور الجغرافي للتاريخ .

إن التنظيم الجيوبوليتيكي لهذه الفرضية يقوم على الأعمدة الآتية :-

- إن من يسيطر على أرض العراق يسيطر على إقليم المشرق العربي.
- ومن يسطر على المشرق العربي يسيطر على منطقة الشرق الأوسط .
- ومن يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على العالم .

وإذ يعيد التاريخ دورته عند مقلب القرن الحادي والعشرين بالتحالف الأزلي بين الفرس واليهود ، تحت غطاء الإمبراطورية الأمريكية هذه المرة، فإن على العرب إن يستعيدوا دروس التاريخ وأحكام الجغرافية السياسية .

تتألف هذه الدراسة بعد هذه المقدمة من ثلاثة مباحث وخاتمة . فقد جاء المبحث الأول تحت عنوان (حقائق التاريخ) وقد جاء المبحث الثاني تحت عنوان (التحول وإعادة التأهيل التاريخية) ثم جاء المبحث الثالث تحت عنوان (الميدان الجيوستراتيجي) .

المبحث الأول : حقائق التاريخ

لعل من منطق السياسة والحياة والأشياء القول ، أن تحليل وفهم أي علاقة إنسانية معقدة ومركبة يقتضي بنا العودة إلى نقطة البداية في تلك العلاقة . وفي حياة الأمم والشعوب ، فإن العودة إلى نقطة البداية تعني العودة إلى التاريخ . تلك هي فلسفة أنصار المنهج التاريخي في التحليل السياسي ، وكذلك في التحليل الاستراتيجي .

وفي علم (الصراع) – وهو علم حديث نسبياً – فإن التحليل العلمي والبحث العلمي لا ينفصلان عن أسس وقواعد علم النفس الاجتماعي وسايكولوجيا الإنسان والمجتمعات .

من هنا ، فقد اخترنا لبداية هذا البحث أن نستعين بأسلوب التحليل النفسي والاجتماعي لتفسير الجذور التاريخية لموضوع الدراسة .

فبادئ ذي بدء ، يتفق أغلب المؤرخين للمنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط ممن اختصوا في دراسة حركة الصراع التاريخية بين العرب وكلاً من الفرس واليهود ، أن التبرير الإيديولوجي والديني وحتى التفسير المادي لهذا الصراع كان محكوماً في جميع مراحله بما أصطلح عليه بـ - (العقدة) الفارسية و (العقدة) اليهودية تجاه العرب وحضارتهم بشكل عام ، والعراق وقوته ودوره المحوري وقدرته التي استكفت العرب وصدت عنهم أخطار الفرس وأخطار اليهود عبر التأريخ بشكل خاص .

ففي حالة اليهود ، فإنهم ومنذ زمن التوراة يرون أنفسهم قبائل داخلة في صراع حياة أو موت مع قبائل أخرى . وقد أستقر في وجدانهم أنهم دائماً المحاصرون والمطاردون . وحتى عندما ذهبوا إلى التيه ، فلقد حملوا معهم عقدهم الدفينة. (١)

وبالتأكيد ، فإن أغلب القبائل التي احتكوا بها وحاربوها عند بداية ظهورهم كانت من القبائل العربية ، أو الأصول لقبائل عربية . غير أن أصل تلك العقد يعود أساساً إلى الظرف التاريخي الذي أوجدهم بين منافي التيه والشتات ، بعد أن استقرت لهم دولتهم ، تلك الدولة ، التي أزيلت من التأريخ على يد العراقيين .

وفي حالة الفرس ، فإن الأمر لا يختلف كثيراً . فعلى الرغم من أن الفرس قد اعتنقوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي لبلادهم ، فإن إحياء الروح الفارسية واحترامها قد ظل طاغياً دائماً على الثقافة الإيرانية ، فالشعور بالعزة القومية متجذر في الوجدان الإيراني . ولذا ، فإن الشعور الديني أو النزعة الإيمانية لم يستطع أن يمحو من الذاكرة الإيرانية اعتقاد الإيرانيين الخاطئ بان إمبراطوريتهم الفارسية القديمة وحضارتهم لم تسقط على يد المسلمين العرب ، بل على يد العرب المسلمين . وبالطبع ، فالفرق بين تقديم الإسلام على العروبة أو العروبة على الإسلام كبير جداً.(٢) كما لم تنس الذاكرة الإيرانية ، التركيز على العراق أكثر من غيره من أمصار العرب ، بوصفه قاعدة الفاتحين .

تأسيساً على ذلك ، فإن تقاسم الفرس واليهود الشعور بالعقدة نحو العرب ، للاعتبارات السابقة ، إضافة إلى اعتبارات أخرى تتعلق باحتكار العرب بعث الرسالة الإسلامية والتفوق الحضاري والوفرة العددية والاقتصادية ، قد راكم جميع مقاربات التحالف والنزعة المشتركة في الثأر والانتقام . إن القراءة الدقيقة والموضوعية للتأريخ تؤكد هذا الاستنتاج .

ففي عام ٧٣٢ ق.م هاجم الأشوريون مملكة إسرائيل ودحروا واقتادوا معهم إلى العراق ثلاثة من قبائلهم كأسرى . وهم حسبما يذكر التأريخ الإسرائيلي قبائل (كادو) و (روبين) و (مانسيا) .(٣) وبعد موت الملك الآشوري ، تمرد الإسرائيليون على الحكم الجديد وأوقفوا دفع الجزية إلى الآشوريين ، إلا أن الآشوريين ردوا على ذلك بحملة عسكرية كبيرة حاصرت ثم احتلت مملكة السامرة ، وأخذت بقية القبائل الإسرائيلية العشرة (٤) كسبايا وأسرى إلى العراق ، وانهارت على إثر ذلك مملكة إسرائيل.(٥)

أعتبر الأنبياء اليهود ، أن ذلك هو عقوبة من الله لليهود بسبب الفساد الذي كان قد استشرى بينهم ، وابتعادهم عن تعاليم التوراة . (٦)

وفي عام ٧٠١ ق.م ، قام الملك الأشوري المشهور (سنحاريب) بهجوم جديد هذه المرة على أورشليم (القدس) في مملكة يهوذا ، لكن الإمبراطورية الأشورية كانت بلغت نقطة ضعفها ، خصوصاً بعد أن بدأت الإمبراطورية البابلية وسط بلاد ما بين النهرين بالنهوض ، ثم حصلت على استقلالها من الإمبراطورية الأشورية العجوز ، وبدأت تظهر كإمبراطورية فتية منذ عام ٦٢٦ ق.م عندما انهارت الإمبراطورية الأشورية كلياً . (٧)

كان ملوك بابل قد أكملوا على اليهود وممالكهم في منطقة ساحل البحر المتوسط ، عندما أنهوا حالة الشغب التي سببها اليهود ، وذلك بتصفية مملكتهم الأخيرة . (٨)

ففي عام ٥٩٧ ق.م ، قام البابليون باكتساح مملكة يهوذا في فلسطين ، وأخذوا معهم حسب مصادر التلمود ٣٠٢٣ يهودياً إلى العراق ، وهكذا كانت الحملة الأولى من ثلاث حملات عسكرية ، الثانية وقعت عام ٥٨٧ ق.م ، وأسر فيها ٨٣٢ يهودياً ، والثالثة عام ٥٨١ ق.م وأسر فيها ٧٤٥ يهودياً (٩) وهؤلاء جميعاً تم أخذهم إلى العراق . (١٠)

واليوم ، فإن كافة المؤرخين والباحثين ومن مختلف الديانات والعقائد يتفقون ، على أن الملك البابلي الشهير نبوخذنصر (٦٠٤ – ٥٦٢)ق.م ، قد أبقى على الأسرى اليهود وأستخدمهم كعبيد لتوسيع بناء بابل . (١١)

وبمرور السنين ، أعاد اليهود في بابل تنظيم أنفسهم ، فاتصلوا سراً بالاخمينيين ، أعداء بابل الألداء في بلاد الفرس ، ووضعوا إمكانياتهم في خدمة مخطط ملكهم كورش ، وفتحوا له المنافذ السرية الموصلة إلى قلب المدينة لاحتلالها ، بعد أن أظهر كورش يأسه من إمكانية اقتحام بابل بحكم

أسوارها المنيعة العالية . (١٢) فكان أن سقطت بابل بيد الاخمينيين الذين أحرقوها سنة ٥٣٩ ق.م . (١٣)

وقد ثمن الاخمينيون جهود اليهود هذه ، عندما سمح لهم كورش بالعودة إلى فلسطين مما مكنهم من السيطرة عليها من جديد . (١٤)

وهكذا ، فقد أصبح كورش ، الذي أنقذ اليهود من السبي البابلي على يد نبوخذنصر، بطلاً في الذاكرة اليهودية . (١٥)

إن العهد القديم وما ذكر فيه عن أشور وبابل ، وسبي اليهود من إسرائيل القديمة في يهوذا والسامرة إلى أرض العراق ، هو تأريخ حي لكثير من المتطرفين اليهود ومثقفيهم وقياداتهم الدينية والسياسية ، الذين جددوا الذاكرة اليهودية عبر القرون فأنتجوا العقيدة الصهيونية التي تتمحور جميع خطوطها حول فكرة إعادة بعث دولة اليهود في إسرائيل على أرض فلسطين العربية ، كما تدعو أساساً ، إلى تدمير وسحق واحتلال بلاد العراقيين وإنهاء الخطر الذي مثلته لهم قوة العراق في الماضي وستمثله لا محالة في المستقبل على دولتهم إسرائيل .

فالمنظومة الإيديولوجية الصهيونية ، ذات الخلفية الدينية أساساً ، إنما تعتبر العراق جزءاً من (أرض إسرائيل الكبرى) ، لن يطول الزمن ، هكذا تقول فتاوى حاخاماتهم الكبار ، حتى تحققها على إنقاض أهلها . يقول نص التلمود بهذا الشأن : (أقيموا مذبحة لأبنائهم ، أكنسوها بمكنسة الدمار هذه بابل الآثمة وآشور أرض الخطيئة ، خربوها واجعلوها لا تسكنها إلا الفئران حتى لا يجد العربي عموداً يربط إليه ناقته) . (١٦)

وحول نفس المسألة ، ورغم وحدة المضمون ، فإن التكوين الإيديولوجي يظهر أكثر تركيباً عند القراءة الدقيقة للرؤية الفارسية . إن مصدر التعقيد هنا ، هي المساحة التاريخية المشتركة مع العرب في الإسلام التي فرضت قروناً من الزمن أفرغ فيها الفرس أناتهم التاريخية وحذقهم المعهود لأجل تفريسه .

فرغم دخولهم في الإسلام ، إلا أن الفرس ظلوا منعزلين عرقياً وثقافياً (١٧) ، فإيران ، هي الأولى بين أقاليم الشرق التي لم يدخلها الإسلام والعروبة معاً في القرن السابع الميلادي . وإذا كان الأقباط في مصر والموارنة في لبنان قد قبلوا العروبة بغير الإسلام ، فإن مثل هذه المجموعات ظلت أقليات ، أما في إيران فتوجد أمة بأسرها فعلت عكس ذلك، قبلت الإسلام وليس العروبة . (١٨)

كما أن قبول الفرس للإسلام قد جاء بعد أن عدلوا الكثير وأضافوا الكثير إلى الفقه والفكر الإسلاميين (١٩) ، إذ تدلل الكثير من الشواهد التاريخية ، سعي الفرس إلى تغيير الكثير من القيم الإسلامية ، بما يتلائم وقيمهم وعاداتهم ونزعتهم القومية قبل الإسلام . (٢٠)

من هنا ، فإن هناك اتجاهات فكرية فارسية كثيرة ترفض أن يكون الإسلام قد حقق في تأريخ بلاد الفرس شيئاً أو أثر فيها ، وقدر لهذه الاتجاهات أن تكون قائدة باستمرار. (٢١)

لقد دخل الفرس في الإسلام وكان دخولهم نوعاً من الاستسلام فقد جاء بعد العجز عن مقاومته ، فاستمرت تبعاً لذلك نزعة الحقد والثأر عند بقايا أرستقراطيتهم أو القوى التي لم يستطع الإسلام تغييرها ووجدت نفسها في منأى عن تأثيره ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الفرس موئل تأليب تلك القوى ضد العرب ، فكان لهذا طرف فارسي دائم في كل حادثة انقسام في تاريخ الأمة . (٢٢)

وضمن هذا المسعى ، فلقد كانت (الحركة الشعوبية) صناعة الفرس الحذقة . تلك الحركة التاريخية العنصرية الحاقدة التي اتجهت نحو الأمة العربية فهاجمت تأريخ الأمة وتقاليدها ، محاولة تجريدها من مزاياها الحضارية ومن شخصيتها القومية الواحدة ، ثم اتجهت إلى مهاجمة جوهر الدين الإسلامي . وقد تنوعت وتعددت الأدوار التي مارسها الشعوبيون ، فالتخريب الثقافي وإشاعة التفكك السياسي والتحلل الاجتماعي كلها كانت ضمن ممارسات الشعوبيين الذين جددوا التحالف الفارسي – اليهودي القديم. كما تركزت جهود الشعوبيين أساساً على هدم الدولة ومؤسساتها وقد حرصوا على أن يضعوا أنفسهم بديلاً للعرب . وقد اختتمت هذه المرحلة بالاحتلال البويهي . (٢٣)

لقد أدت مئات السنين من التحالف مع اليهود لأن تصبح اليهودية كخبرة مصدر للتحرك الفارسي تاريخياً ، ويعبر دور الارستقراطية الفارسية في الحقبة الإسلامية من التأريخ العربي عن مدى الإفادة من تلك الخبرة ، فالوصايا (أقتلوا كل من يقف ضدكم ، واهدموا كل قائم ، ودنسوا كل مقدس) ، أصبحت الشعار الأساسي في العمل التخريبي على مستوى الفرس بقصد حشدهم عدائياً ضد الإسلام والعروبة .(٢٤)

وفي الحقيقة ، فإن صدمة الفتح الإسلامي في إسقاط دولة الفرس الساسانية الأخيرة ، كانت أقوى هزات التأريخ التي حفزت الوعي الجمعي للفرس ضد العرب . فلقد كانت الدولة الساسانية في أوج قوتها ، ولم يكن هناك ما يشير إلى وصولها إلى مرحل الترهل أو الانهيار . فكان ذلك جرحاً غائراً للعظمة القومية وللذات الفارسية ولحضارة الفرس التي شيدت عبر القرون تحت ظل إمبراطوريتهم المترامية .

فدولة الفرس هي دولة الشرق القديم المركزية ، وهي صاحبة تأريخ إمبراطوري طويل تلازمه سمة التمدد خارج حدودها ، فتملأ الفراغ إن وجدته . (٢٥)

ولذلك، فإن أوائل أشكال التوحيد السياسي لمنطقة الشرق الأوسط قد جرت على يد الفرس ، عندما مدوا تحت سلطانهم الشرق الأوسط بأكمله . (٢٦) وأداروا نصف العالم القديم أكثر من مرة . (٢٧)

ففي عصر الحضارات القديمة توسعت فارس على حساب أغلب الدول المجاورة ووصلت جيوشها إلى مصر الفرعونية واحتلتها مرتين . كذلك صمدت أمام الغزو اليوناني الذي قام به الاسكندر الأكبر ، كما أنها دولة الشرق العظمى في مواجهة الروم في العصور الوسطى . (٢٨)

وفي العصر الوسيط ، شهد التأريخ ظهور الدولة الفارسية في شكلها المميز ، من خلال التأكيد على الثقافة الفارسية والمصلحة القومية . وقد بلغ هذا ذروته بتأسيس حكم الأسرة الصفوية عام ١٥٠١ م ، إضافة إلى إقامة دولة قوية طغت على توجهاتها الإقليمية مسألة توظيف البعد الديني في صراعها ومزاحماتها لدولة الخلافة العثمانية – منافستها الرئيسة في السيطرة على منطقة الشرق الأوسط – فقامت مراراً باحتلال العراق . (٢٩)

فبحكم علاقات المكان ، فإن جغرافية الصراع بين العثمانيين والصفويين قد تركزت فوق أرض العراق . وخارج حدود الجغرافية ، فإن البعد الاستراتيجي وكذلك دعاوى التأريخ قد فعلت ما هو أكثر .

إذ يرى الفرس ومنذ القدم ، أن تأريخ العراق متداخل مع تأريخ الفرس، ويعتقدون أن العراق هو امتداد طبيعي لبلادهم . (٣٠)

وعلى هذا الأساس ، يدعي الباحث الإيراني الشهير (ألمطهري) في كتابة (الإسلام وإيران) الفرضية التالية : (أن جميع سكان العراق الأصليين من غير العرب الاقحاح ، هم تلقائياً من الفرس ، ما دام العراق كان خاضعاً لبلاد فارس خلال عدة قرون قبل الفتح العربي الإسلامي) . (٣١)

لقد عبرت الأفكار السابقة عن مدى الالتقاء بين المنظورين اليهودي والفارسي عقائدياً وإستراتيجياً تجاه العرب كأمة وكحضارة . كما عبرت قرناً بعد قرن حتى وصلت القرن العشرين . عندها بلغ التحالف مداه ، فكان، كما في الماضي ، محاطاً أغلبه حول العراق .

المبحث الثاني : التحول وإعادة التأهيل التاريخية

تشكل المعطيات السياسية والإستراتيجية التي رافقت صعود وتمدد القوة الإيرانية في الشرق الأوسط خلال الربع الأخير من القرن العشرين ، من أهم التحولات المفصلية في التأريخ . فلقد أدى التدفق السياسي الهائل للأحداث الذي صاحب طوفان الثورة الإيرانية وما بعدها ، إلى تشتيت الثابت والمتغير في إيقاع حركة الشرق الأوسط وتوازناته الإستراتيجية .

لقد كانت إيران خلال النصف الثاني من العصر البهلوي وحتى موعد قيام الثورة عام ١٩٧٩ ، القوة المهيمنة على منطقة الخليج العربي والقوة الأساسية في الشرق الأوسط . (٣٢)

فقد كوفئت إيران بسبب تحالفها مع الولايات المتحدة والغرب خلال فترة الحرب الباردة ، عندما أصبحت شرطي الخليج وحاميته ضد الخطر الشيوعي والقوى السوفيتية . (٣٣)

وفي الحقيقة ، فإن ذلك كان منسجماً إلى حد بعيد مع التطلعات الإيرانية تاريخياً ، فالبعد الإقليمي كان يحظى دائماً بأهمية خاصة في توجهات إيران الخارجية على مدى العصور . (٣٤)

تقول الباحثة الأمريكية جوديث ياف في هذا الصدد : إن طموحات إيران في أن تصبح القوة المهيمنة على المنطقة ليس بالأمر الجديد ، بل هو موقف تاريخي قديم . إذ تفترض إيران أن هذا الدور هو حق طبيعي في الخليج على وجه الخصوص ، وفي كل الشرق الأوسط بوجه عام . وذلك على اعتبار أنها أكبر بلد من حيث عدد السكان ، وأقدم حضارة ، كما كانت في الغالب أكبر قوة عسكرية . (٣٥)

كما كانت إيران في زمن الشاه محمد رضا بهلوي (١٩٤١ – ١٩٧٩) أقوى حليفات إسرائيل والأقرب إليها من بين دول الشرق الأوسط غير العربية .

لقد اعتمدت إيران في توجهها الإقليمي ، أثناء جميع الحقب التاريخية على مبدأ تقديم نفسها كأنموذج مثالي لإقتداء الآخرين فكان العصر البهلوي هو العصر الوحيد الذي سعت فيه إيران لإقتداء غيرها ، فكانت تركيا (أتاتورك) هي الأنموذج لإيران . (٣٦)

وعندما برزت القومية السياسية في القرن العشرين ، بين دول الشرق الأوسط بشكل خاص ، ازدادت شقة الخلاف بين إيران والدول العربية . فبعد أن تحقق للأقطار العربية استقلالها ، تحولت القومية العربية ليس فقط إلى حركة معادية للاستعمار ، وإنما إلى حركة وحدوية ، الأمر الذي لا بد أن يصطدم بتطلعات إيران ، التي تجعل من الخليج العربي بساحليه الشرقي والغربي مجالاً حيوياً للتوسع الإيراني . (٣٧)

كما أدى تبني إيران للمشروع القومي الضيق ، إلى إغلاق أهم أبواب تأثيرها على المنطقة العربية والذي كان لها سابقاً تحت غطاء الإسلام منذ أيام الدولة الصفوية . (٣٨)

كان هذا العامل بالذات ، إلى جانب عوامل أخرى تتعلق بالفتور الذي أصاب علاقات الشاه بالولايات المتحدة ، هو الذي حرك في واشنطن ضرورات البدء بإتباع سياسة مغايرة كلياً مع إيران . فإيران ، وما تمثله لمصالح الولايات المتحدة وأمن إسرائيل ، قوة لا يمكن التفريط بها . وهي تحت حكم الشاه ، في هذه المرحلة ، قد فقدت دورها وتأثيرها . فكان دعم القوى المعارضة للشاه ، وتسهيل عملية التغيير السياسي للنظام في صلب تلك السياسة .

إذ قدمت الولايات المتحدة جميع الإمكانيات لمساعدة الحركة التي نظمت الإطاحة بالشاه . حيث اشتركت إدارة الرئيس كارتر في كل خطوة إبتداءاً من الاستعدادات الدعائية إلى تجهيز الأسلحة ، ومن الاتصالات التي ضمنت تحييد الجيش الإيراني ، إلى الإنذار النهائي الذي أعطى للزعيم المهزوم في كانون الثاني ١٩٧٩ لمغادرة إيران . (٣٩)

كان هذا التحول الشامل الذي أجري في إيران ، بداية لمرحلة جديدة كلياً في حياة الشرق الأوسط . فلقد كان المطلوب أمريكياً هو إعادة تأهيل إيران كي تستأنف دورها الخاص ضمن الإستراتيجية الأمريكية الاشمل في المنطقة .

وبالطبع ، فإن ثوابت الإستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط ، هي ثوابت إسرائيل قبل كل شيء . وهي تستند في الأساس إلى المشروع الإسرائيلي القديم والمعروف بمشروع (التفتيت الطائفي والعنصري للدول العربية) . إن العودة إلى الإستراتيجية الإسرائيلية في الثمانينات يوضح هذه الحقيقة .

إذ تبدأ الوثيقة الخاصة بهذه الإستراتيجية باستعراض الحالة العربية العامة في تلك الفترة ، وتطرح أحكاماً وتصورات للمستقبل حول إمكانية تفتيت كل بلد عربي على حدة وحسب ظروف كل بلد .

إن أشد ما يثير الاهتمام في هذه الوثيقة ، هو ما تنطوي عليه من أفكار حول العراق بالتحديد ، ومنها هذه الفقرات : (٤٠)

- إن تفتيت العراق هو أهم بكثير من تفتيت سوريا ، أو أي بلد عربي آخر ، وذلك لأن العراق أقوى من جميع الدول العربية الأخرى .
- إن في قوة العراق خطورة على إسرائيل في المدى القريب أكبر من الخطورة النابعة من قوة أية دولة أخرى .
- إن بشائر الفرقة والحرب الأهلية أصبحت ممكنة ، أكثر من أي وقت مضى ، خاصة بعد الثورة في إيران .
- وسوف يصبح بالإمكان تقسيم العراق على ثلاث دويلات ، دولة في البصرة ودولة في بغداد ودولة في الموصل .

وهنا ، يضيف الكاتب الإسرائيلي عوديد ينون : أن أهم طرفين يستطيعان أن يخدما هذه الإستراتيجية هما ، الأقليات في الدول العربية ودول الجوار غير العربية . فألاقليات تدعم من اجل الانفصال ، ودول الجوار غير العربية تدعم للدخول في حروب استنزاف مع الدول العربية . ويذكر الكاتب إيران على وجه التحديد . (٤١)

ورغم أن من الصعب حتى الآن الحكم بمدى نجاح أو فشل هذا المشروع ، رغم أن سياسات كثيرة قد أدت وما زالت تؤدي إليه ، إلا أنه يمكن القول ، أن تأريخنا الحديث هو بالأساس ، نتاج لمشروعات استعمارية مشابهة ، بدأت أفكاراً ، وتحولت إلى اتفاقات ووثائق تلزمنا وتحكمنا حتى اليوم .

من ذلك ، فليس من الصعب أن نتصور أن اتفاقات ما قد جرت بترتيب معين بين واشنطن وتل أبيب وطهران لإنجاز هذا المشروع أو أي مشروعات أخرى مشابهة .

وهنا ، فإن الموضوع يدخل في صلب نظرية المؤامرة ، ونحن وإن كنا غير مناصرين لفرضيات هذه النظرية ، إلا أن ذلك لا ينفي وجود المؤامرة في التأريخ .

ثم نطرح التساؤل التالي : هل كانت هناك إمكانية بالفعل للإبقاء على التحالف القديم بين إيران وإسرائيل في ظل النظام السياسي الجديد في إيران؟

وللإجابة على ذلك يمكن القول ، إن قروناً من التحالف السري والمعلن، قد أنتجت صيغا متنوعة لأشكال من العمل المشترك بين الطرفين. ومع الخبرة الطويلة لكل طرف بوسائل وإمكانيات وأهداف الطرف الآخر ، وبالطبع وجود نفس العدو ، فإن تجديد التحالف قد أصبح ممكناً .

وهكذا ، فقد أعادت إيران ، تحت حكم رجال الدين ، علاقتها الخاصة مع إسرائيل . وقد كان لزاماً لهذه العلاقة ، أن تعود إلى طابعها السري ، فهي بهذا الشكل ، أكثر فاعلية مع متطلبات المرحلة القادمة ، كما إنها بالتأكيد من الشروط التي تفرضها المعطيات الدينية وشرعية النظام .

كما أنها إيضاً ، تستند إلى جذور عميقة وتأريخ طويل وعلاقات شخصية قديمة ومصالح وثيقة نمت بين الطرفين على مدى الزمن . فهي علاقة منفعة متبادلة ، ورؤى سياسية متقاربة كثيراً . فكلاهما ، يعتبر المنطقة العربية ميدانه الحيوي عند النظر بعيداً خارج الحدود ، فلا تذكر صفحات العلاقة السرية بين إيران وإسرائيل إلا ويذكر العرب ، هكذا كان الأمر دائماً وهكذا هو الآن . (٤٢)

فالمراجعة البسيطة للعقود الثلاث الأخيرة تظهر ، أن إيران وإسرائيل كانتا حريصتين دائماً على العمل معاً بهدوء وسرية ضمن أغلب القضايا الإقليمية المشتركة والحساسة . والسبب بسيط ، فعندما تضطر إيران إلى الاختيار ، فإنها تقدم دائماً مصالحها الإستراتيجية على دوافعها الإيديولوجية المعلنة ، ولا توجد منطقة تتضح فيها أهمية البعد الاستراتيجي في سياسة إيران مثل المنطقة المتعلقة بإسرائيل .

ولذا يمكن أن نفهم الآن ، أن الولايات المتحدة وإسرائيل كانتا تبغي من وراء إقصاء الشاه واستبداله بالنظام الحالي ، هو الوصول إلى جعل إيران قوة قادرة على تنفيذ التغيير المطلوب للخارطة الجيوسياسية للمنطقة ، من خلال تذويب هويتها العربية . فالخطة الأمريكية والإسرائيلية تقوم على فكرة إنتاج إيران وتأهيلها وتقديمها بوجه مقبول عربياً وإسلامياً ، وفي أوساط قوى التحرر العالمية بتصوير قيادتها الجديدة كحركة تحرر وطني بمضمون إسلامي تحرري . (٤٣)

فبهذه الخطوات المبرمجة ، برزت قوة جديدة في المنطقة تحظى باحترام الكثير من مناهضي الاستعمار والصهيونية ، ووضعت في موقع مناقض كلياً للموقع الذي احتله الشاه ، فانتعشت قدرة إيران على التأثير داخل بعض الدول العربية وفي مقدمتها العراق ودول الخليج العربي ، خصوصاً بوجود كتل جماهيرية مرتبطة بإيران عرقياً وثقافياً . (٤٤)

من ذلك ، فلم يغير مجيء الثورة في إيران من النمط التقليدي لعلاقاتها مع الدول العربية . فالنظام الجديد أتبع سياسة إزاء الخليج العربي مشابهة بدرجة مذهلة للسياسة في زمن الشاه . فلم تعد إيران الجزر العربية الثلاثة، طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى إلى دولة الإمارات العربية ، والتي كان قد أحتلها الشاه عام ١٩٧١ ، بل أنها أعادت مطالبتها بالبحرين ، ولم تحول إيران أسم الخليج (الفارسي) إلى الخليج (الإسلامي) ، كما توقع العديد من المراقبين . (٤٥)

وكان مطلوباً أيضاً ، أن تنجح إيران الثورة في قلب قواعد ومعادلات الصراع الإقليمي ودوافعه وأهدافه جذرياً ، فبدلاً من وجود أتفاق عربي وإسلامي على أن إسرائيل والولايات المتحدة هما مصدر الخطر الأكبر في المنطقة ، كان يجب أن يطغى خطر إقليمي داخلي يحل محل الخطرين الأمريكي والإسرائيلي ، هو خطر الانقسام العربي والإسلامي . (٤٦)

وكان الأسلوب الأساسي لنشر شعارات الثورة الإيرانية هو العنف وليس الحوار . وهكذا وجدت المنطقة نفسها تواجه إيران جديدة تحمل شعارات ضد الولايات المتحدة وإسرائيل ، لكن عنفها كان يوجه ضد العرب فقط . (٤٧)

وكان واضحاً ، أن الثورة الإيرانية وشعارها في (تصدير عقائدها) ، لم تكن تشكل أبداً تهديداً لإسرائيل ، لأنها كانت موجهة أساساً لتحطيم الوضع القائم عربياً وإسلامياً ، وإعادة تشكيله . وهذه المهمة لا يمكن إلا أن تقود إلى التشرذم العربي الإسلامي ونشوب حروب وصراعات عربية – إيرانية ، تحول طاقات العرب والمسلمين إلى هذه الصراعات ، فلا يبقى لمواجهة إسرائيل سوى الإجهاد والانقسامات العربية والإسلامية . وهنا يكمن سبب دعم إسرائيل والولايات المتحدة لإيران أثناء الحرب التي فرضتها على العراق . (٤٨)

وبداهة ، فإن الإسرائيليين لم تكن تعوزهم الأسباب التي تدعوهم لدعم إيران . فالعراق ، تاريخياً ، من أشد الدول العربية عداءاً لإسرائيل . كذلك فإن إسرائيل ، ومن خلال تطبيقها لمنطوق إستراتيجيتها لفترة الثمانينات ، تبقى صاحبة المصلحة الرئيسة في نشوب الحرب واستمرارها .

فلقد كان وزن العراق إقليمياً ، يظهر أساساً في دوره المحوري في الصراع العربي الإسرائيلي . لذا ، كان تقدير إسرائيل والولايات المتحدة أن إشغال العراق في حرب مع إيران سوف يؤدي إلى تحجيم دور العراق إقليمياً حتى لو خرج من الحرب منتصراً . (٤٩)

وبالفعل ، إذ أن حالة الحرب وإشغال العراق فيها قد منعته من التحول إلى عملاق سياسي واقتصادي في المنطقة .

كذلك فإن إشغال إيران للعراق قد هيأ الظرف المناسب لتمرير سياسة إسرائيل في تصفية جزء كبير من القضية الفلسطينية. فكان غزو لبنان عام ١٩٨٢ ، هو لسحق المقاومة الفلسطينية وتدميرها عند الحدود الشمالية لإسرائيل . (٥٠)

وبالطبع ، فلقد كان العراق ، حتى مع ظروف الحرب ، الداعم الأكبر للقضية الفلسطينية ، سياسياً واقتصادياً وإعلامياً .

كل هذا يختصره الجنرال أهارون ياريف ، الذي شغل منصب مدير الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية في تلك الفترة ، بقوله عن أهمية إيران بالنسبة لإسرائيل : (لولا وجود إيران على الحدود الشرقية للعرب ، إيران القوية صاحبة السطوة بقوتها العسكرية وتطلعاتها التي تتخطى مجال إيران، لواجهت إسرائيل حشداً عربياً هائلاً عند حدودها الشمالية والشرقية . فإيران بسطوتها وقوتها تؤدي دوراً لا يستهان به في تعزيز وجود إسرائيل نتيجة لما يربط الجانبين من أهداف ومصالح مشتركة). (٥١)

ورغم حرص الطرفين على السرية في العلاقات ، فإن التعاون والتنسيق المباشر قد بلغ حداً فاق التصورات .

ففي ٧ حزيران ١٩٨١ ، قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بضرب المفاعل النووي العراقي قرب بغداد . (٥٢) وهو الهجوم الجوي الذي أطلقت عليه إسرائيل أسم (عملية بابل) (٥٣) لتشكل أكثر من مجرد إشارة على أن التعاون الإيراني والإسرائيلي وصل إلى درجة متطورة للغاية . إذ أعترف إسرائيليون وإيرانيون بعد الغارة ، أن طهران زودت تل أبيب بمئات الصور التي التقطتها الطائرات الإيرانية للمفاعل في وقت سابق، مما سهل عملية ضربه من الناحية الفنية . (٥٤)

كذلك فقد كشف ضباط كبار في الجيش الإسرائيلي ، عند منتصف الثمانينيات ، عن وجود أكثر من ٣٥٠ خبيراً عسكرياً إسرائيلياً في صفوف القوات الإيرانية المنتشرة على جبهات القتال ، وهو الموضوع الذي لم تكذبه طهران . (٥٥)

ومنذ السنوات الأولى للحرب ، فقد كانت تظهر إشارات كثيرة عن وجود صفقات تسليح سرية تقوم بها تل أبيب وواشنطن لدعم مجهود إيران في مواصلة الحرب . وفي عام ١٩٨٦ ، تفجرت فضيحة (إيران – جيت) التي كشفت ملابساتها فيما بعد ، عن قيام إسرائيل بدور الوسيط للنيابة في بيع كميات هائلة من السلاح والعتاد الحربي الأمريكي إلى إيران ، حتى وصلت أقيام هذه الصفقات إلى حوالي ٨٢ مليار دولار . (٥٦) يضاف إلى ذلك ، صفقات تسليح أخرى قامت بين إسرائيل وتل أبيب مباشرة وصلت إلى عدة مليارات من الدولارات . (٥٧)

ومع أن الحرب التي امتدت لثماني سنوات قد رجحت كفة العراق كمنتصر في النهاية . إلا إنها كانت في نفس الوقت ، من أطول وأشرس الحروب في القرن العشرين . إذ أدت إلى مقتل زهاء مليون شخص من الضحايا ، وخسائر مالية تقدر بحوالي ١.١٩ ترليون دولار . (٥٨)

كما أنها غيرت المعادلات السياسية لمنطقة الشرق الأوسط ، وكان لنتائجها أعظم الأثر في العوامل التي أدت إلى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ . مما يعني التتابع الناجح في المراحل الموصولة ضمن إستراتيجية الولايات المتحدة وإسرائيل .

وللتأريخ ، فإن مشكلة العراق الكبرى لم تكن نتيجة النهج القيادي الخاطئ فحسب ، بل أن التجاوزات والمؤامرات الإيرانية كانت أكبر أسبابها. ولسوء حظ العراقيين لم تحسن قيادته التصرف ، خصوصاً في خطأ احتلال الكويت ، وإلا فأن حرب السنوات الثمانية، بكل مآسيها والملاحظات عليها ، أنهت إلى أفق مفتوح احتمالات التفوق والخطر الإيراني .

المبحث الثالث : الميدان الجيوستراتيجي

مع بداية العقد الاخير من القرن الماضي ، شعرت الولايات المتحدة أن الوقت قد حان لبداية عصر جديد من السيطرة على منطقة الشرق الأوسط.

كان مسرح الشرق الأوسط آنذاك ، حافلاً بالمشكلتين الإقليميتين الاكثر حدة ، الصراع في الخليج (العراق والكويت)والصراع العربي الاسرائيلي، فما كان من الولايات المتحدة إلا أن تحركت لتأمين مصالحها وتكريس سيطرتها بسرعة وفعالية كبيرتين .

وهنا ، فإن الأمريكيين تحركوا في الحالتين في ظل ظروف مثالية تمثلت في غياب المنافس الدولي بعد إنتهاء الحرب الباردة ، وتفكك النظام الإقليمي العربي . ولا شك أن حرب الخليج لعام ١٩٩١، بنتائجها الاقليمية ، قد أضافت عناصر جديدة على الظروف المثالية المذكورة للأمريكيين ، فكان أن تحركوا على وجه السرعة لاستثمارها في فرض تسوية سياسية للمشكلة الأطول عمراً والاكثر تعقيداً – المشكلة الفلسطينية – فحقق الامريكيون آنذاك نجاحاً هائلاً عندما قادوا دول المنطقة الى مؤتمر مدريد للسلام ، وفقاً للمفهوم الأمريكي عن السلام ، نهاية عام ١٩٩١.(٥٩)

وبذلك ، أصبح الشرق الأوسط مفتوحاً بالكامل أمام الولايات المتحدة . وكان تقدير واشنطن ، أن الشريك الرئيس المعتمد في هذه المرحلة بالذات ، ليس أصدقاؤها الموالون من العرب ، وإنما إسرائيل ، فهي – وليس غيرها – بالواقع العملي وبحقائق القوة مؤثرة في الساحة ، وفضلا عن ذلك فإن إسرائيل لظروف علاقتها بالولايات المتحدة لا تتردد من وازع قانوني أو أخلاقي ، وإنما هي بيقين داخلي عميق تدرك أن حياتها وبقاءها بعيداً عن الولايات المتحدة مشروع غير قابل للبقاء ومحكوم عليه تاريخياً . (٦٠)

أما بالنسبة للعراق ، فإن الولايات المتحدة كانت تعتقد طول حقبة التسعينات ، أن الوهن الذي أصابه بعد حرب عام ١٩٩١، سوف يكفل قريباً إسقاط نظامه. وعندما لم تنجح هذه السياسة ، فإن الولايات المتحدة اعتمدت سياسة الخنق البطيء عن طريق أقسى حصار اقتصادي ونفسي ومعنوي وإنساني في التاريخ ، وبالتوازي مع الحصار الاقتصادي تم فرض حصار سياسي شديد الصرامة ، حتى أصبح العراق في عزلة كاملة عن عالمه. (٦١)

وبعد عام ٢٠٠٠، حدث تغيير كبير في سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط. فقد تبنت الإدارة الامريكية ، إدارة المحافظين الجدد، رؤية جديدة للمنطقة .

وقد تركزت هذه الرؤية على الانحياز المطلق لإسرائيل ، ومنحها الضوء الاخضر للقضاء على الانتفاضة الفلسطينية . كما تركزت أيضاً ، على القضاء على النظام العراقي ، وجاءت أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ ، لتتيح لهذه الإدارة الفرصة لبلورة رؤية جديدة ومتكاملة لإعادة تشكيل خريطة الشرق الأوسط برمتها بما يتناسب مع مشروعها للسيطرة المنفردة على المنطقة ، والضمان المطلق لأمن إسرائيل .(٦٢)

تجدر الملاحظة هنا ، أن هذه الاستراتيجية الأمريكية لمنطقة الشرق الاوسط ، تعود إلى بداية عقد التسعينيات . حيث قامت وزارة الدفاع الأمريكية مطلع عام ١٩٩٢ بتجميع عناصر وثيقة أطلق عليها اسم (إرشاد التخطيط الدفاعي). (٦٣)

ومعنى ذلك ، أن الولايات المتحدة كانت تعمل ومنذ وقت مبكر لشرق أوسط جديد يخدم المصالح الاستراتيجية الأمريكية في السيطرة على المنطقة، إذ يمثل احتلال العراق خطوة أولى في خريطة المنطقة الجديدة، بإعتبار أن العراق يمثل الحلقة الاقوى فيها .

فالاطاحة بالنظام العراقي ونزع أسلحة الدمار الشامل العراقية ، لتبرير إحتلال العراق ، وفق الرؤية الامريكية . كان قراراً استراتيجياً لا مناص من تحقيقه وغير قابل للمساومة ، فهو قرار يدخل في صميم متطلبات الامن القومي للولايات المتحدة ، ويحتل درجة الاهمية القصوى في سلم الاولويات، إلى الحد الذي يعزز الاعتقاد لدى الكثيرين في أن احتلال العراق كان واحداً من أولى الاهداف التي أفردت لها الولايات المتحدة حيزاً هاماً في إستراتيجيتها العالمية مع بداية القرن الحادي والعشرين. (٦٤)

لقد كان احتلال العراق إذن ، نقطة البداية فقط لمشروع إقليمي أوسع تم التمهيد له سياسياً واستراتيجياً في الولايات المتحدة منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي ، كما تم التحضير له أكاديمياً في مراكز الابحاث والدراسات الغربية منذ منتصف التسعينيات تحت اسم (الشرق الاوسط الكبير) .

فقد ظهر مفهوم الشرق الأوسط الكبير ، أول مرة ، في التقرير الاستراتيجي السنوي لعام ١٩٩٥ (Strategic Assessment 1995) ، الذي يصدره معهد الدراسات الاستراتيجية والقومية (INSS) ، التابع لوزارة الدفاع الأمريكية . ومنذ ذلك الوقت ، أخذ هذا المفهوم ينتشر بين الباحثين في القضايا الاستراتيجية . (٦٥)

ومعنى ذلك ، أن صناعة جيو- سياسية ، وجيو - تاريخية جديدة ستبدأ، ولكن ليس على الأسس التي كان أرساها الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) تحديداً ضمن ما عرف باتفاقية (سايكس – بيكو) لعام ١٩١٦ ، بل ضمن إتاحة بدائل جديدة يفرضها النظام الدولي الحالي الذي تستقطب الولايات المتحدة الامريكية هندسته الصعبة .(٦٦)

ولعل ما طرحه صاموئيل هنتغتون في نظريته (صدام الحضارات) التي نشرها في مجلة Foreign Affaires أول مرة ، لا تخرج في مضمونها عن تصورات وثيقة (إرشاد التخطيط الدفاعي) ، او عن مضمون مشروع (الشرق الاوسط الكبير) ، والدعوة لإستراتيجية جديدة تنبه لخطورة منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية الاستراتيجية في القرن الحادي والعشرين وبسبب التحول العقائدي وأهمية البترول .

لقد إستنفرت نظرية (صدام الحضارات) (٦٧) المحافظين الجدد فطرحوا مشروعهم بضرورة إعادة تشكيل الشرق الاوسط ، الذي جاء منسجماً إلى حد كبير مع طروحات شيمون بيريز في كتابه (الشرق الاوسط الجديد) ، الذي حدد موقع ودور إسرائيل المحوري في قلبه ، باعتبار أنها ستصبح مركز الشرق الاوسط الجديد وعصب حياته السياسية والاقتصادية . (٦٨)

وبديهياً ، فإن أية تصورات اسرائيلية لشرق أوسط كهذا ، لا تخلو من الاعتبارات ذات الخلفية التاريخية والدينية أساساً . التي تستلزم بطبيعة الحال ، استحضار خبرة الماضي وأحكام الأيديولوجيا والعقيدة .

وفي ضوء هذه التصورات ، كان الذي حدث وما يزال يحدث في العراق . فإسرائيل ، لن تكتفي ، لإعتبارات تتعلق بوجودها ، بكل ما جرى على العراق بعد سقوط نظامه وإحتلاله . فهي بحسها المتصل بالتجربة والذاكرة تدرك أن بقاءها مرهون بسحقه وإلغائه.

وبمعنى آخر ، فإن اسرائيل الكبرى ومشروعها لن يبقى في التاريخ ما لم يتم تفكيك العراق وإخراجه من الجغرافيا .

وبالطبع ، فإن الهدف الاسرائيلي في تقسيم العراق قد وجد قبولاً واسعاً بين أغلب أصدقاء وأنصار إسرائيل داخل الولايات المتحدة . فقد أعلن الرئيس الفخري لمجلس العلاقات الخارجية : (أن تقسيم العراق يعد تصحيحاً للخلل التاريخي الذي ارتكبه البريطانيون بإقامة عراق واحد). وتصريح

السفير الأمريكي الأسبق لدى الامم المتحدة : (ليس للولايات المتحدة مصلحة استراتيجية في وجوب أن يكون هناك عراق واحد) . (٦٩)

وعلى الأرض ، فإن جميع مجريات الأحداث بعد احتلال العراق تؤكد، إن إكمال التقسيم هو المهمة الأساسية للولايات المتحدة في العراق ، لأن تقسيم العراق هو المدخل الى عمليات تقسيم وتفتيت بقية الدول العربية وتذويب الهوية العربية ، لصالح أقليات طائفية وعرقية ومصالح فئوية صغيرة . (٧٠)

وبما أن إيران ، وكما أثبتت تجربة غزو العراق ، هي الطرف الأقدر على نشر الطائفية ، فإن دورها يجب أن يستمر حتى الوصول الى تقسيم العراق . وعلى هذا الاساس ، فإن من مصلحة الولايات المتحدة وإسرائيل الاحتفاظ بقدرة إيران على التأثير المنضبط في داخل العراق وفي الدول العربية لمواصلة دورها التدميري والتقسيمي للعراق وللدول العربية . مع العمل ، بين الحين والآخر ، على كبح جماح الدور الإيراني غير المنضبط أحياناً والقائم على محاولة إيران إستغلال تعاونها مع الولايات المتحدة لتحقيق مكاسب أكبر على حساب المصالح الأمريكية في العراق وفي المنطقة . (٧١)

ولهذا ، يجب التمييز بين مسألتين مختلفتين ، مسألة تقسيم العراق وهي رابط مشترك بين الولايات المتحدة وإيران وإسرائيل ، كان وما زال قائماً وقوياً . ومسألة تقاسم العراق ، وهي مسألة خلافية بين الولايات المتحدة وإيران ، لكنها ملحقة بالمسألة الاساسية وهي تقسيم العراق . (٧٢)

لقد كانت إيران ، بلا أي شك ، هي الرابح الاكبر من إحتلال العراق . فليس سراً، أن الفراغ السياسي الكبير في العراق ، منذ سقوط النظام وحتى الآن ، إنما ملأته إيران أكثر من أي قوة أخرى . وفي حين يكرر القادة العسكريون الأمريكيون – من وقت لآخر – شكاواهم من التدخل الإيراني في العراق بالبشر والمال والسلاح ، فإن قدرتهم على تحجيم هذا التدخل محدودة . بل إننا إذا تصورنا – في ظل الإدارة الأمريكية الجديدة ، إدارة أوباما ، أي محاولة جادة لتنفيذ إنسحاب ما من العراق ، فإن إيران سوف تظل هي أيضاً الرابحة من هذا الأمر ، مثلما هي مستفيدة بالقطع من الوضع الحالي. (٧٣)

لكن الأكيد ، هو أن إيران هي الحليف الواقعي الأكثر أهمية للولايات المتحدة في العراق . (٧٤)

فبالرغم من العداء اللفظي المعلن والمستمر بين الدولتين ، فإن العلاقات بينهما لم تصل قط لمرحلة اللا عودة ، سواء في العراق ، او بخصوص أي مسألة خلافية أخرى . (٧٥)

فإيران من جهة ، تحشد القوى المؤيدة ، وترسل برجالاتها بعشرات الألوف الى العراق ، كما تقول التقديرات العراقية والأمريكية ، وتصدر عن قيادتها إشارات غاضبة ضد الاحتلال الأمريكي وممارساته ، بصورة تدعو للإعتقاد أن ايران قد دخلت بالفعل في مواجهة مفتوحة مع الولايات المتحدة

بدءاً من العراق . بيد أنها من جهة ثانية ، تفتح قنوات الاتصال الخلفية وتهب لمد يد العون للولايات المتحدة . تماماً كما فعلت في أفغانستان قبل ذلك ، إذ إعتمدت طهران مقاربة مزدوجة في التعامل مع الحرب الامريكية على طالبان والقاعدة ، فهي كانت تعارض الحرب من الناحية الرسمية وتطلق التصريحات ضد ما تسميه بالغطرسة الامريكية ، بيد أنها في واقع الحال ، قدمت خدمات جليلة للأمريكان ، لم تقم دولة حليفة تقليدياً لواشنطن ، كبريطانيا أو اسرائيل ، على تقديمها . (٧٦)

إن التمسك بـ (الشيء ونقيضه) هو أبرز ما يميز السياسة الإيرانية تجاه قضايا الشرق الأوسط بشكل عام ، وهو الذي يجعل الخطاب السياسي الإيراني ينطق بلسانين ، وهو أمر عليه يسير . (٧٧)

إن لعبة التظاهر قد ناسبت الطرفين .

وهكذا ، فإن حرباً كان أحد دوافعها (المعلنة) تقويض الجمهورية الاسلامية الإيرانية ، قد منحت طهران أكبر مكسب استراتيجي تحققه منذ أربعة قرون . (٧٨)

فالفراغ الاستراتيجي الهائل الذي خلفه تدمير العراق وخروجه من معادلة التوازن الاقليمي ، قد أكمل لدى إيران جميع العوامل لبلورة مشروعها في الهيمنة على منطقة الخليج العربي . وهو ما حصلت عليه اسرائيل أيضاً كي تبلور مشروعها في الشرق الأوسط الجديد ، الذي أصبح قابلاً للتطبيق بعد إنهيار العراق وتفكك النظام الاقليمي العربي ، الذي كان العراق أحد أعمدته الثلاث الى جانب مصر وسوريا .

الخاتمة:

حرب العراق قد تلاقت فيها إذن الاستراتيجيات الثلاث الإيرانية والإسرائيلية والأمريكية على قواسم مشتركة، بحيث يحصل كل طرف على جملة من الأهداف والمكاسب الإستراتيجية.

فيكون لإيران دورها كقوة إقليمية أساسية في منطقة الخليج العربي فضلا عن هيمنتها على جزء كبير من مصير العراق.

ويكون لإسرائيل خيار تقسيم العراق أو إضعافه إلى أقصى الحدود لإنهاء وزنه السياسي والاستراتيجي والبشري في حسابات ميزان القوى العربية – الإسرائيلية.

فبعد تحييد القوة المصرية من معادلة الصراع الإقليمي وتحجيم الدور الذي مثلته سوريا في هذا الصراع، فإن تحطيم قوة العراق قد أكمل المراحل نحو تصدع النظام الإقليمي العربي وإقامة مشاريع وهياكل جديدة لمصلحة إسرائيل والغرب وملء فراغ القوة العربية.

وبالطبع، فإن إعادة رسم الخارطة الجيو- سياسية للمنطقة تتم على وفق الإستراتيجية الأشمل للولايات المتحدة الأمريكية ورؤيتها الكونية لعالم القوة العظمى الوحيدة، وشرق أوسط جديد محكوم تحت سيطرتها المنضبطة.

إن هذه الدراسة تفترض أن العراق هو المحور الجغرافي للتاريخ، فالعراق هو محور الارتكاز للميدان الجيوستراتيجي الأهم في العالم ، ألا وهو الشرق الأوسط.

إن التنظيم الجيوبوليتيكي لهذه الفرضية يقوم على الأعمدة الآتية:

- إن من يسيطر على أرض العراق يسيطر على إقليم المشرق العربي.
- ومن يسيطر على المشرق العربي يسيطر على منطقة الشرق الأوسط.
- ومن يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على العالم.

فالعراق هو نقطة ارتكاز القوة العربية، وهو الآن في قلب المنطقة المتداخلة للمجال الحيوي المشترك بين طموحات إيران الإقليمية وحدود الدائرة المركزية لإسرائيل ومشروعها في الشرق الأوسط.

وفي ضوء هذه الحقيقة، فقد بات من العسير على أي مجهود عربي إعادة فرض التوازن الاستراتيجي مع إيران أو مع إسرائيل بغياب قوة العراق، فالعراق سيبقى بالحساب الاستراتيجي الثابت، دعامة التوازن الوحيدة.

المصادر:

١- محمد حسنين هيكل : حرب الخليج (أوهام القوة والنصر) ،ط١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص١٨١.
٢- سليمان البدور : قنبلة إيران النووية في خدمة الدين أم القومية ، صحيفة الرأي ، العدد ٦٠١٧ ، مؤسسة الرأي ، الأردن ، عمان ، ٢٠٠٤/١٢/٢٩ ، ص١١.
٣- هكذا ورد في كتاب (الملوك) من العهد القديم .
٤- لم يرد ذكر لأسماء هذه القبائل في أي من المصادر التاريخية .
٥- جون كولي : إتحاد ضد بابل ، شبكة الانترنيت ، موقع القوة الثالثة ، http://www.thirdpower.org
٦- نفس المصدر .
٧- نفس المصدر .
٨- نزار عبد اللطيف الحديثي : العلاقات العربية – الفارسية (دراسة تاريخية)، ط١، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص٢١.
٩- وردت هذه الأرقام والتواريخ في كتاب هرميا من العهد القديم .
١٠- جون كولي ، المصدر السابق .
١١- نفس المصدر .
١٢- منسي سلامة : مؤامرة ١٩٨٦ (قصة الاتصالات الاسرائيلية الايرانية الامريكية ، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص١٢.
١٣- نزار الحديثي ، المصدر السابق ، ص٢٢.
١٤- نفس المصدر ، ص٢٢.
١٥- منسي سلامة ، المصدر السابق ، ص١٢ .
١٦- يحيى اليحياوي ، عن التغلغل الاسرائيلي بالعراق ، شبكة الانترنيت ، http://www.login.yahoo.com
17- Shireen Hunter; Arab – Iranian Relations and Stability In The Persian Gulf, in the Washington , Quarterly, Summer 1984, P.68.
١٨- محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله (قصة إيران والثورة)، ط٦ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص٢٣.
١٩- عبدالله الأشعل : إيران والخليج (رؤية للمستقبل المنظور وأبعاده الاستراتيجية) ، شبكة الانترنت ، موقع البينة ، http://www.albainah.com
20- Shireen Hunter, Op. Cit. P.68.
٢١- نزار الحديثي ، المصدر السابق ، ص١٠.
٢٢- نفس المصدر ، ص ٢٦.
٢٣- محمد كرد علي : رسائل البلغاء ، ط٤ ، مكتبة مدبولي ، ١٩٧١، ص٣٥٤.
٢٤- نزار الحديثي ، المصدر السابق ، ص٥٦.
٢٥- نيفين مسعد : معضلة العلاقات العربية – الايرانية منذ إحتلال العراق ، شبكة الانترنت ، موقع مجلة الدراسات الفلسطينية ، www.alrased.net
٢٦- محمد رياض : الخريطة الجيوسياسية المتغيرة للشرق الأوسط (نظرة تأريخية)، شبكة الانترنت ، موقع مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٧٤، تشرين الأول ٢٠٠٨ ، http://www.siyassa.org
٢٧- محمد سعيد عبد المؤمن ، إيران والنظام الدولي ، شبكة الانترنت ، موقع مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٦٥، تموز ٢٠٠٦، http://www.siyassa.org

٢٨- عبدالله الأشعل ، المصدر السابق .
٢٩- فرد هوليداي : دراسات شرق أوسطية ، ترجمة : أحمد رمو ، ط١ ، دار علاء الدين ، سوريا ، ٢٠٠٤ ، ص١٠٩.
٣٠- عبدالله الاشعل ، المصدر السابق .
٣١- سليم مطر : الذات الجريحة (إشكالات الهوية في العراق والعالم العربي ((الشرقمتوسطي))) ، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص٨٥.
٣٢- ر.ك.رمضاني : قضايا الأمن في منطقة الخليج ، ترجمة : فائزة مهدي محمد ، ط١، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، البصرة ، العدد٥٠ ، ١٩٨١، ص ص ١٥-١٦.
٣٣- عبدالله الأشعل ، المصدر السابق .
٣٤- محسن رضائي بازتاب : إيران والفكر الاقليمي ، مختارات إيرانية ، العدد٥٨ ، أيار ٢٠٠٥ ، شبكة الانترنت ، موقع البينة ، www.albainah.com
٣٥- السيدة زهرة : أطماع الهيمنة الايرانية (رؤى أمريكية) ، شبكة الانترنت ، موقع شبكة البصرة ، http://www.albasrah.net
٣٦- محسن رضائي بازتاب ، المصدر السابق.
37- Darius: Khomeinis Policy toward the Mid East, In Darius, Amosamasnus Gulf Security into 1980s, 1984, P.19.
٣٨- صلاح المختار : السيناريو الامريكي الأخطر (حروب تأهيل إيران) ، شبكة الانترنت ، موقع شبكة البصرة ،http://www.albasrah.net ،ص٧.
٣٩- روبرت كارمن درايفوس: رهينة خميني ، ترجمة : علي شمس الدين ، ط١، منشورات دار الفجر ، أبو ظبي ، ١٩٨٠، ص١٣.
٤٠- الاستراتيجية الاسرائيلية في الثمانينات ، شبكة الانترنت ، موقع القوة الثالثة ، http://www.thirdpower.org
٤١- صلاح المختار ، المصدر السابق ، ص٧.
٤٢- منسي سلامة ، المصدر السابق ، ص١١.
٤٣- صلاح المختار ، المصدر السابق ، ص٦.
٤٤- نفس المصدر ، ص٧.
45- Shireen Hunter, Op. cit, P.76.
٤٦- صلاح المختار ، المصدر السابق ، ص٧.
٤٧- نفس المصدر ، ص٧.
٤٨- نفس المصدر ، ص٤.
٤٩- محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج (أوهام القوة والنصر) ، مصدر سبق ذكره ، ص١٢٢.
٥٠- مجموعة كتاب : قراءة في استراتيجية الولايات المتحدة في الخليج العربي ، مجلة الطليعة ، العدد ٧٢ ، بيروت ، أيلول ١٩٨٤ ، ص٣٥.
٥١- منسي سلامة ، المصدر السابق ، ص ص ٣٥-٣٦.
٥٢- أدموند رونز : من يهدد منطقة الخليج ، ترجمة : محمد شوقي ، ط١، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، البصرة ، العدد ٧٤، ١٩٨٣، ص٧٥.

٥٣- لعل في التسمية الرمزية " عملية بابل" إشارة واضحة الى عملية سابقة كنا قد تناولناها في صفحات سابقة . وهي العملية التي جرت بين أسلاف اليهود والفرس قبل عشرات القرون عندما إحتل الفرس بابل وأحرقوها .
٥٤- منسي سلامة ، المصدر السابق ، ص٤٢.
٥٥- فهد الفانك : من الدفاع الثابت الى الدفاع المتحرك ، مجلة كل العرب ، العدد١٩٥، لندن ، أيار ١٩٨٦ ، ص١٥.
٥٦- علي حسين باكير: الكشف عن تقرير سري يفضح علاقة إيران باسرائيل ، شبكة الانترنت ، موقع البينة ، http://www.albainah.com
٥٧- محمد حسنين هيكل ، المصدر السابق ، ص١٣٣.
٥٨- حرب الخليج الأولى ، ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، شبكة الانترنت ، http://ar.wikipedia.org
٥٩- علي فياض : أثر المتغيرات الدولية واختلال ميزان القوى على النزاعات الإقليمية والمحلية ، مجلة دراسات دولية ، العدد ١٥، مركز الدراسات الدولية، جامعة بغداد ، بغداد ، كانون الثاني ٢٠٠٢ ، ص١٥.
٦٠- محمد حسنين هيكل ، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق ، ط٢، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص١٣٤.
٦١- نفس المصدر ، ص٢٩٩.
٦٢- حسن نافعة: وجهة نظر في تطور الرؤية الأمريكية تجاه العالم العربي ، مجلة السياسة الدولية ، العدد١٥٣، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، تموز ٢٠٠٣، ص٧٨.
٦٣- أحمد سليم البرهان : الشرق الأوسط (إعادة التفكير) ، شبكة الانترنت ، موقع مجلة السياسة الدولية ، http://www.siyassa.org
٦٤- بوب وود وارد: حرب بوش ، عرض وتحليل : حسين عبد الواحد ، ط١، مدبولي الصغير للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص١٨.
٦٥- أحمد سليم البرهان : مبادرة الشرق الأوسط الكبير (الأبعاد السياسية والإستراتيجية) ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٥٨ ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، تشرين الأول ٢٠٠٤ ، ص٤٣.
٦٦- سيار الجميل : العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط (مفاهيم عصر قادم)، ط١، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق ، بيروت، ١٩٩٧ ، ص١٥٥.
٦٧- أنظر : صموئيل هنتغتون : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الدولي ، ترجمة : مالك عبيد ، ط١، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، بنغازي ، ١٩٩٩.
٦٨- أنظر : شيمون بيريز : الشرق الأوسط الجديد ، ط١، ترجمة دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ، ١٩٩٤.
69- Edward P. Joseph and Michael Ohanlon: The case for soft partition in Iraq, The Brookings Institution, Oct 2007, P.29.
٧٠- صلاح المختار ، المصدر السابق ، ص ص ٤-٥.
٧١- نفس المصدر ، ص٥.
٧٢- نفس المصدر ، ص١١.
٧٣- أسامة الغزالي حرب : الحقبة الإيرانية ، شبكة الانترنت ، موقع مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٧٣، تموز ٢٠٠٨ ، http://www.siyassa.org
٧٤- أيفودالدر وآخرون : هلال الأزمات (الإستراتيجية الأمريكية – الأوربية حيال الشرق الأوسط الكبير) ، ط١، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٦،ص١٤٧.

٧٥- أمل حمادة : الجديد في العلاقات الإيرانية – الأمريكية ، شبكة الانترنت ، موقع مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٥٣ ،تموز ٢٠٠٣ ، http://www.siyassa.org
٧٦- عريب الرنتاوي : لعبة طهران المزدوجة ، شبكة الانترنت ، موقع فيصل نور ، http://www.Fnoor.com
٧٧- نيفين مسعد ، المصدر السابق.
٧٨- بيتر و. غالبريث: نهاية العراق ، ترجمة : أياد أحمد ، ط١، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٧، ص١٩.